وقفات تدبرية في قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

د. أمجد بن محمد بن محمد زيدان[1]

مُلخّصُ البَحْث

في هذا البحث الكلام عن التدبر من حيث تعريفه، والعلاقة بينه وبين التفسير، وبينه وبين الاستنباط، كما كان له وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته، وذكر الأمور المعينة على التدبر وثمراته.

عرض هذا البحث الوقفات التدبرية المستخرجة من قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، التي وردت في كتاب الله، بعد أن قام بالحديث عن القصة بأسلوب أقرب للموضوعي.

ولا أدعي الاستقصاء في الوقفات التي ذكرتها، وإنما ذكرت ما ظهر لي مما فهمته من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يأتي باحث آخر فيضيف أو يستدرك أو ينقد، فكتاب الله لا تنقضي عجائبه، اللّٰهُمَّ وفقنا للفهم الصحيح، وجنبنا الخطأ والزلل في كتابك.

(١) الأستاذ المشارك في قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه هداية للناس، وجعله مباركاً وذكرى لأولي الألباب، وأمرهم بتدبره، والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، وبعد:

فإن الله عزوجل لما أكرم هذه الأمة بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ندبهم وأمرهم بتدبره، فقال عز شأنه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ولذا يحسن بقارئ القرآن والمستمع له أن يمتثل أمر الله، وأن يكون له حظ في تدبر كلام الله وتأمله، إذ التدبر أمر زائد على مجرد القراءة والاستماع، ومن هذا المنطلق أحببت أن أشارك بهذا البحث المتواضع في التدبر، والذي يحمل عنوان «وقفات تدبرية في قصة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام»، وكُلِّي رجاء أن أنفع نفسي، وأنفع القارئ الكريم بشيء من الوقفات التدبرية التي احتوت عليها قصة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام، حيث إنني لم أرَ أحداً أفرد بحثاً يحمل هذا العنوان.

وقد يظهر للقارئ والمتأمل أن هذه الوقفات أقرب للاستنباطات منها للتدبر، فيقال له: وهل الاستنباط إلا نتيجة للتدبر؟! كما أنه قُصِد في هذه الوقفات التدبرية الانتفاع والامتثال.

والكلام عن التدبر وُجِد مبثوثاً في كتب أهل العلم المتقدمين في ثنايا كتبهم، ووجد من أفرده وخصه بالبحث والتأليف من المعاصرين، فمن ذلك على سبيل المثال:

- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

- تدبر القرآن الكريم، عبد اللطيف بن عبد الله التويجري، رسالة ماجستير في قسم القرآن وعلومه، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطبوعة.
- تدبر القرآن الكريم «دراسة تأصيلية»، محمد عبد الجواد الصاوي، رسالة دكتوراه بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية، لم تطبع إلى الآن. وهذه الرسالة والتي قبلها وضحت معالم هذا المصطلح وبينته.
- تدبر القرآن، سلمان بن عمر السنيدي.
- الخلاصة في تدبر القرآن الكريم، د. خالد بن عثمان السبت.
- مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا، رئيس فريق إعداد المنهج أ. د. محمد ابن عبد العزيز العواجي.
- تدبر سورة الكهف، رقية طه العلواني.
- تدبر سورة يوسف تهذيب آيات للسائلين، ناصر بن سليمان العمر.
- القرآن تدبر وعمل، مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي.
- المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد بن أحمد مكي.
- ليدبروا آياته، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.

إلى غير ذلك من الأبحاث والمؤلفات، وهي كثيرة.

كما أنه عقدت مؤتمرات وملتقيات علمية حول التدبر، ضمت أبحاثاً عدة فمن هذه المؤتمرات والملتقيات:

- مفهوم التدبر تحرير وتأصيل، أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، والمنعقد في الرياض (١٤٢٩هـ)، وأوراق الملتقى العلمي الثاني لتدبر القرآن الكريم، والمنعقد في الرياض (١٤٣١هـ).
- بحوث المؤتمر الأول لتدبر القرآن الكريم، الدوحة، قطر، شعبان (١٤٣٤هـ)، والمؤتمر الثاني لتدبر القرآن الكريم، الدار البيضاء، المغرب، محرم (١٤٣٧هـ)[1].

(١) انظر: مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا (ص٢٧).

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. امتثال أمر الله في تدبر القرآن الكريم، إذ هو المقصود الأعظم من نزوله، بل وُبِّخَ من لم يتدبر القرآن.

٢. أخذ العظة والعبرة من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على وجه العموم، ونبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ على وجه الخصوص.

٣. نفع نفسي ونفع غيري في موضوع تدبر القرآن الكريم.

٤. أنه متعلق بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، فالكتابة فيه خدمة لهذا الموضوع المهم الذي أمر الله به.

٥. المساهمة في إحياء عبادة التدبر لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والمساعدة على ذلك.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة أشرت فيها إلى أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج في كتابة البحث، ومبحثين.

المبحث الأول: في الكلام عن التدبر، وقصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين، ويشمل المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف التدبر.

المطلب الثاني: العلاقة بين التدبر والتفسير، والتدبر والاستنباط.

المطلب الثالث: وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته، وأهمية تدبر قصص القرآن.

المطلب الرابع: الأمور المعينة على التدبر.

المطلب الخامس: ثمرات التدبر.

المطلب السادس: قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين.

المبحث الثاني: الوقفات التدبرية من قصة شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين.

ثم الخاتمة ذكرت فيها ما ظهر لي من نتائج وتوصيات، وأخيراً فهرس المصادر، وفهرس الموضوعات.

وكانت الكتابة في هذا الموضوع في ضوء المنهج الاستقرائي، إذ تَمَّ جمعُ الآيات المتعلقة بالقصة، واستخراج الوقفات التدبرية منها وتوضيحها، وكتبت البحث وفق المنهج الآتي:

١. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها.
٢. خرجت الأحاديث النبوية من مصادرها، فإن كانت في الصحيحين اكتفيت بتخريجه منهما، وإن كانت في غيرهما بينت درجتها معتمداً على أقوال أهل العلم.
٣. لم أترجم للأعلام طلباً للاختصار.
٤. ختمت البحث بفهرسين، أحدهما للمصادر، والآخر للموضوعات.

هذا، ولقد كانت كتابتي للوقفات التدبرية مما فتح الله به عليَّ وتأملته من آيات القصة، وما كان من كتابٍ فإنِّي أُشِيرُ إلى ذلك، وأحسب أن هذه الوقفات التدبرية تحقق الغرض من التدبر وهو العمل، باعتبار أن كل تدبر منها هو في مآله عمل بالقرآن.

واللهَ أسأل أن يكون في هذا البحث ما ينفع المسلمين، ويعينهم على فهم تدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأسأله أن يغفر لي ما كان من خطأ وزلل، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول
في الكلام عن التدبر
وقصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين

المطلب الأول: تعريف التدبر:

التدبر عند أهل اللغة:

الدال والباء والراء، أصل هذا الباب، وجُلُّه في قياس واحد، وهو: آخر الشيء وخَلْفُه، خِلاف قبلِه.

والتدبير: أن يُدَبِّر الإنسانُ أمرَه، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره، وهو دبره.

والتدبير: النظر في عاقبة الأمر؛ أي: إلى ما يؤول إليه عاقبته، كالتدبر[1].

التدبر عند المفسرين:

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ (٥٣٨هـ): معنى تدبر القرآن: تأمُّل معانيه، وتبصُّرِ ما فيه[2].

وقال أيضاً: وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأنَّ مَن اقتنعَ بظاهر المتلوِّ لم يَحْلَ منهُ بكثير طائلٍ، وكان مثله كمثل لقحة دَرُور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يَسْتَوْلِدُها[3].

وقال النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧١٠هـ): والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمور، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كلِّ تأمُّلٍ[4].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (ص٣٥٥)، وتاج العروس في شرح القاموس (٢٦٥/١١).
(٢) تفسير الكشاف للزمخشري (٥٢٩/١).
(٣) المصدر السابق (٨٧/٤).
(٤) تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٣٤٨/١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): وتدبر الكلام: أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرَّة بعد مرَّة، ولهذا جاء على بناء التفعُّل، كالتجرُّع، والتفهُّم، والتبيُّن[١].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): والتدبر: التَّفَكُّر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المعاني، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليلِ اللفظ كثيرِ المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر، وهو صيغة تَكَلُّفٍ مشتقة مِن فعل: دَبَر - بوزن ضَرَب - إذا تَبِعَ، فَتَدَبَّرَه بمنْزلة تَتَبَّعَه، ومعناه: أنَّه يتعقبُ ظواهرُ الألفاظ ليعلم ما يَدْبُر ظواهرُها مِن المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة[٢].

وقال عبد الرحمن حبنكة الميداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢٥هـ): هو التفكر الشامل الواصل إلى آواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[٣].

وقيل: النظر في آيات القرآن الكريم، والتفكر في معانيها، بقصد اتِّعاظ القلب، وامتثال الجوارح[٤].

وقيل: التأمل الدؤوب، والنظر الثاقب، والتفكر في الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه عِلماً وعملاً، والارتقاء بذلك[٥].

هذه جملة من التعريفات التي وقفت عليها لكلمة التدبر يتضح بها مصطلح التدبر، وتركت غيرها اختصاراً، وإذا نظرنا لهذه التعاريف نجد أن فيها كلمات تكررت فيها «التأمل - النظر - التفكر».

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/١٨٣).
(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣/٢٥٢).
(٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (ص١٠).
(٤) تدبر القرآن الكريم لعبد اللطيف التويجري (ص٤٣).
(٥) تدبر القرآن الكريم، دراسة تأصيلية لمحمد الصاوي (ص١٠).

فالتأمل: التثبت في النظر[١]، ويقال: تَأَمَّل الرجل: تَلَبَّث في الأمر والنَّظَر وانتظَر. وقيل: تأمَّل الشيء: تَدَبَّرَهُ، وأعاد النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه[٢].

والنَّظَر: تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، يقال: نظرتُ إلى كذا، إذا مددت طرفك إليه، رأيته أو لم تره، ونظرت إذا رأيته وتدبرته، ونظرت في كذا: تأمّلته[٣].

وأما التفكر: فالفِكْر: إعمال النظر. وقيل: إعمال الخاطِرِ في الشيء، والتفكر: التأمل[٤].

المطلب الثاني: العلاقة بين التدبر والتفسير، والتدبر والاستنباط[٥]:

أولاً: العلاقة بين التدبر والتفسير:

سبق بيان مصطلح التدبر.

وأما التفسير، فهو: بيان معاني القرآن الكريم[٦].

وبالنظر لمصطلح التدبر والتفسير يمكن أن يقال:

١. إن التدبر من مقاصد التفسير.

٢. إن التفسير لا يلزم منه الاتِّعاظ والعمل، فقد يأتي إنسانٌ غيرُ مسلم ويفسر معاني القرآن، بينما التدبر لا بُدَّ فيه مِن الاتِّعاظ والعمل.

٣. إنَّ المفسرَ غرضُه العلم بالمعنى، والمتدبر غرضه الانتفاع والامتثال: علماً وإيماناً وعملاً وسلوكاً، ولذا فإنَّ التفسير يُغَذِّي القوة العلمية، والتدبر يغذي القوة العلمية والإيمانية والعملية.

---

(١) كتاب العين (٣٤٧/٨).
(٢) تاج العروس (٢٧/٢٨).
(٣) المصدر السابق (٢٤٥/١٤).
(٤) المصدر السابق (٣٤٥/١٣).
(٥) انظر: الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص١٥)، وتدبر القرآن الكريم للتويجري (ص٥١).
(٦) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة لابن عثيمين (٢٨/١).

٤. إنَّ التَّدَبُّر مأمورٌ به عامَّة الناس للانتفاع بالقرآن والاهتداء به، ولذلك خُوطِب به ابتداءً الكفار في آيات التدبر، والناس فيه درجات، بحسب رسوخ العلم والإيمان وقوة التفاعل والتأثر. أما التفسير فمأمور به بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله تعالى بحسب الطاقة.

٥. إنَّ بين التدبُّر والتفسير تلازم، فالتوصل إلى مراد الله تعالى مِن كلامه يحتاج إلى تدبُّر ونظر وتأمل، كما أنَّ التدبر يتوقف على معرفة المعنى.

ثانياً: العلاقة بين التدبر والاستنباط:

الاستنباط: هو الاستخراج، «وكل مستخرج شيئاً كان مستتراً عن العيون، أو عن معارف القلوب فهو له مستنبط»(١).

فالاستنباط من القرآن يكون بمعنى استخراج المعاني والأحكام وألوان الهدايات في العقائد والسلوك وغير ذلك، وهذا يكون نتيجةً للتدبُّر كما لا يخفى، وهو قدرٌ زائدٌ على مُجَرَّد فهمِ اللفظ والكشفِ عن معناه.

إذن فالاستنباط نتيجة للتدبُّر فهو فرعٌ منه، والتدبر هو الوقوف مع الآيات والتأمل فيها، فينتج من ذلك الاستنباط.

المطلب الثالث: وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته وأهمية تدبر قصص القرآن:

إنَّ القارئ والمتأمِّلَ لكتاب الله ستَمُرُّ عليه آياتٌ مِن كتابه الكريم أمر فيها عَزَّوَجَلَّ بتدَبُّر كتابه، وذمَّ فيها الْمُعرِضين عن تَدَبُّرِه.

قال تعالى في سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وهي سورة مكية.

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وهي سورة مكية أيضاً.

(١) تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير (٢٥٥/٧).

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهي سورة مدنية.

وقال تعالى في سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

هذه أربعُ آياتٍ لا خامس لها، وقد جاءت في سياقات مختلفة، فآية ص تصلح لجميع المخاطبين مِن مؤمنين وغيرهم، وآية المؤمنون جاءت في سياق الكلام عن المشركين، وأمَّا آية النساء ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي سياق الكلام عن المنافقين، فالقارئ لكتاب الله والمستمع له مأمور بأمر زائد على التلاوة والاستماع ألا وهو التدبر والتأمل لكلامه عَزَّوَجَلَّ.

ومِمَّا يُساعِد على ذلك قراءة كتاب الله قراءةً مُرَتَّلة متأنيةً لا على وجه - وهي السرعة في القراءة - يَفْقُد معه التأمل والتدبر.

قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٢٤هـ): باب ما يستحب لقارئ القرآن من الترتيل في قراءته والتَّرَسُّل والتدبُّر. وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تحت هذه الترجمة عدة آثار وأحاديث، منها:

حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّها نعتت قراءة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قراءةً مُفَسَّرةً حرفاً حرفاً.

وأثر ابن حمزة قال: قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنِّي سريع القراءة، وإنِّي أقرأ القرآن في ثلاثة، فقال: لأنْ أقرأ البقرةَ في ليلةٍ فأَدَبَّرها وأُرَتِّلها أحبُّ إلَيَّ مِن أن أقرأ كما تقول[1].

(١) انظر: فضائل القرآن ومعالمه وآدابه (٣٢٧/١)، وحديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجه الترمذي في سننه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد، عن ابن أبي ملكية، عن يعلى ابن مَمْلك، عن أم سلمة. وقد روى ابن جريج هذا الحديث عن ابن أبي ملكية، عن أم سلمة، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُقَطِّع قراءاته، وحديث الليث أصح. سنن الترمذي، كتاب ثواب القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص٦٥٣)، وضعفه الألباني. انظره بنفس الإحالة.

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١١هـ): بابُ إباحةِ ترديدِ الآية الواحدة في الصلاة مراراً عند التدبُّر والتفكير في القرآن إن صح الخبَر.

وذكر تحت هذه الترجمة روايةً واحدةً فقط، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد إيراده الترجمة: فإنَّ جسْرة بنت دجاجة قالت: سمعت أبا ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآيةٍ أصبح يُرَدِّدُها، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1].

وفي صحيح ابن حِبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٥٤هـ) بترتيب ابن بلبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٣٩هـ) باب قراءة القرآن، وأورد تحت هذا الباب تراجم، وذكر منها:

ذِكرُ الزَّجرِ عن أن يختم القرآن في أقلَّ مِن ثلاثة أيام، إذ استعمال ذلك يكون أقرب إلى التَدَبُّر والتفهم.

وأورد تحت هذه الترجمة حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يفقهُ مَن قرأَ القرآنَ في أقلَّ مِن ثلاثٍ»[2].

وقال ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٠٩هـ): الباب السادس والعشرون: في ذكر ما جاء في قراءة القرآن بالتفكر والتدبر.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وأورد تحت هذه الترجمة عدداً من الآثار والأحاديث[3].

فهذه الآثار والأحاديث، وتراجم العلماء عليها، دالَّةٌ على أهمية التَّرسُّل في القراءة والتأنِّي فيها؛ لأنَّ ذلك مما يُساعِد ويُعِين على تدبُّر كلام الله وتأويله.

(١) انظر: صحيح ابن خزيمة (٢٩٩/١)، رقم الترجمة (١٢١)، والحديث أخرجه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسنده (٢٥٦/٣٥) (٢١٣٢٨)، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٢) انظر: صحيح ابن حِبَّان بترتيب ابن بلبان (٣٥/٣) (٧٥٨). قال شعيب الأرنؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إسناده صحيح على شرطهما.

(٣) انظر: هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن (ص٥٢٨).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): إنَّ هذا القرآن قرأه عبيدٌ وصبيان لم يأخذوه مِن أوَّلِه، لا علم لهم بتأويله، إن أحسن الناس بهذا القرآن مَن رُئِي في عمله، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وإنما تدبر آياته: اتباعه بعمله، يقول أحدهم لصاحبه: تعال أقارئك، واللهِ ما كانت القراء تفعل هذا، واللهِ ما هم بالقراء، ولا الورعة، لا كثَّر اللهُ في الناس أمثالَهم، لا كثَّر اللهُ في الناس أمثالَهم[١].

قال ابن جرير (٣١٠هـ): وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وهذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد مبارك، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يقول: ليتدبروا حُجَجَ الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به.

وفي قراءة (لِتَدَبَّروا آياته)[٢] بالتاء، بمعنى: لتتدبَّره أنت يا محمد وأتباعك ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: وليعتبر أولو العقول والحجا ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عمَّا هم عليه مقيمون من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلَّهم عليه مِن الرشاد وسبيل الصواب[٣].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] استفهام عن عدم تدبرهم فيما يتلى عليهم من القرآن وهو المقصود بالقول، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] والمعنى: أنهم لو تدبروا قولَ القرآن لعلموا أنَّه الحق، بدلالة إعجازه، وبصحةِ أغراضِه، فما كان استمرار عنادهم إلا لأنهم لم يَدَّبَّروا القول[٤].

(١) سنن سعيد بن منصور (٤٢٢/٢) (١٣٥)، قال محققه الدكتور سعد آل حميد: سنده صحيح، وهو صحيح لغيره بما سيأتي من طرق.
(٢) هي قراءة أبي جعفر. انظر: النشر في القراءات العشر (٣٦١/٢).
(٣) انظر: تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٧٨/٢٠).
(٤) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧١/١٨).

وقال الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٥هـ): قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] هلا تأملوا في تفسيره وتدبروا في تأويله، وتفكروا في حججه ودلائله، فيعرفوا بعجزهم عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، إنه كلام رب العالمين(١).

وقال الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا مُعرِضون عن التدبُّر في آياته، غير مكترثين بقول مَن خلقهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] لا يتأدبون بآدابه، ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق، يطلبون الأحكام في التشريعات الضالَّة المخالفة له(٢).

وقال أيضاً: فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبيَّن أنَّ قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم القرآن، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على مَن أعرض عن تدبر كتاب الله جاء مُوَضَّحاً في آيات كثيرة، وقد ذمَّ جَلَّوَعَلَا المعرِض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الآية [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

ومعلومٌ أنَّ كلَّ مَن لم يشتغل بتدبر آيات القرآن العظيم؛ أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه مِن هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وهذه الآيات المذكورةُ تدُلُّ على أنَّ تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمرٌ لا بُدَّ منه للمسلمين(٣).

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل (٣٠٠/١).
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/١).
(٣) المصدر السابق (٤٥٧/٧).

قال الآجُرِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٦٠هـ): إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حثَّ خلقَه على أن يتدبروا القرآن، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم كيف يحثُّ خلقَه على أن يتدبروا كلامه، ومَن تدبَّر كلامَه عرف الربَّ عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيمَ سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضلُّه على المؤمنين، وعرف ما عليه مِن فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذَّر مما حذَّره مولاه الكريم، فرغَّب فيما رغَّبه، ومَن كانت هذه صفتُه عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعَزَّ بلا عشيرة، وأَنِس مما يتوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلو؟ ولم يكن مراده: متى أختم السورة؟ وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوة القرآن عبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق لذلك(١).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): فصل: فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبُّر عند القراءة، والدلائل عليه أكثرُ مِن أن تحصر، وأشهرُ وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود والمطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، والأحاديث فيه كثيرة، وأقاويل السلف فيه مشهورة، وقد بات جماعاتٌ مِن السلف يتلون آية واحدة يتدبروها ويرددونها إلى الصباح(٢).

إن المتدبر لقصص القرآن الكريم يجد في كل قصة، بل في كل آية، وفي كل كلمة، من المقاصد الكلية والجزئية ما تعجز عنه الألسن، ولا تبلغ مداه الأفهام، وصدق الله العظيم إذا يقول مبيناً تلك الأهداف العظيمة من القصص قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) أخلاق حملة القرآن (ص٩).
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٨١).

وتأمل كيف جاء لفظ (عبرة) نكرة ليفيد الشمول والعموم، ففي قصصهم عبرة عن كل شيء، وفي كل شيء من قصصهم عبرة، ولكن من يستخرج تلك الدرر والعبر والجواهر؟! إلا من آتاه الله عقلاً نيراً وقلباً مبصراً، وفتح له من هدايات كتابه، ومعرفة مقاصده، ولذلك جعل العبرة في الآية السابقة قاصرة على ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، هذا يجعلنا نركز على المقاصد الجزئية التي من خلالها نستنطق النص بهدايات ودروس وعبر، ولا شك سنجد وراءها هدايات عظيمة، وفتوحات واسعة، والهداية من الله عَزَّوَجَلَّ[١].

المطلب الرابع: الأمور المعينة على التدبُّر[٢]:

إنَّ هناك أموراً تعين وتساعد القارئ والمستمع على تدبُّر كلام الله عَزَّوَجَلَّ وتأمُّلِه، ومِن ذلك:

١. إدراك أهمية التدبُّر وفائدته: قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، ولو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فقراءة آية بتفكر وتفهُّم خيرٌ مِن قراءة ختمة بغير تدبر، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان[٣].

٢. استحضار عظمة المتكلم بالقرآن: قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وليعلم أن ما يقرؤه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه، فإنَّ التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليرددها[٤].

٣. صدق الطلب والرغبة، وقوة الإقبال على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والقراءة للامتثال والعمل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ

(١) انظر: المقاصد القرآنية (ص١٠٤).
(٢) انظر: الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص٦٣)، وتدبر القرآن الكريم للتويجري (ص١٣٧).
(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (١٨٧/١).
(٤) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص٨٧).

بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٢هـ): والذي نفسي بيده، إنَّ حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله[١].

٤. تنْزيل القرآن على الواقع: فإنَّه يتعين على قارئ القرآن أن يستصحب الأحوال والملابسات التي نزل فيها القرآن، وكيف كان يُعالِج المواقف والوقائع حتى أخرج ذلك المجتمع والجيل الراشد الذي اهتدى بالقرآن، فالقرآن منبع نورٍ وهداية لكل زمان ومكان، فما علينا إلا أن نَعِيَه ونتدبره، وعندئذ سنجد فيه ما يُعيد الحقَّ إلى نصابه، والعالَم إلى صوابه، فتتحرك عجلةُ التَّغيير كما كانت في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٥. حضور القلب أثناء قراءة القرآن أو الاستماع له، ولينظر المرء فيما يكون أدعى للتدبر بالنسبة إليه، القراءة أو الاستماع، وليجعل لنفسه منه حظّاً صالحاً. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٥١هـ): إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعَك، واحضر حضور مَن يخاطبه به مَن تكلم به سبحانه منه إليه، فإنَّه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧][٢].

٦. وجود قدرٍ مِن الفهم للكلام المقروء أو المسموع: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٢٨هـ): وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك[٣].

٧. الابتعاد عن الذنوب والمعاصي وما يُغضِبُ الله، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

(١) تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٤٨٩/٢).
(٢) الفوائد (ص٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٣٢/١٣).

٨. اختيار الوقت المناسب له، وتفريغ النفس مِن الشَّواغل المشوشة للفكر والقلب.

٩. اختيار الحال الأصلح له من الجهر بالقراءة أو الإسرار بها.

١٠. الترتيل والتَّرَسُّل في القراءة، وتكرار الآية أو الآيات.

١١. معرفة الوقف والابتداء، فبِه تَتَبَيَّنُ معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات.

المطلب الخامس: ثمرات التدبر:

ما مِن عبدٍ يُقبِل على كتاب الله بِصِدق وإخلاص ويتدبره إلا كان لهذا التدبر ثمرة ونتيجةٌ يلمِسها في حياته، ومِن هذه الثمرات والنتائج والفوائد لتدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

١. أن به انتفاع القلب، وحياته، وكماله، وشفاءه، وصلاحه، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن.

٢. أنَّه يوصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنَّه يراه يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضُها بعضاً، فبذلك يُعلَم كمال القرآن[١].

٣. أنَّه طريق إلى العمل بما في القرآن من المأمورات، والكف عن المنهيات.

٤. أنه سبيل إلى الاعتبار والاتعاظ بأمثاله وقصصه[٢].

٥. أنه يحمل على محاسبة النفس ومراجعتها.

٦. أنه الطريق إلى معرفة مَحَابّ الله ومَسَاخِطِه، وأوصاف أوليائه وصفات أعدائه[٣].

---

(١) انظر: تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (٣٢٩/١).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١٨٧/١).

(٣) انظر: الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص٢٥).

المطلب السادس: قصة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه أهل مدين:

قبل الشروع في القصة على سبيل الاختصار يحسن أن تُذكر الآيات التي جاءت في ذكر القصة على سبيل الشمول:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ

ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٩١].

وقصتهم باختصار هي كالتالي:

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم

الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيُّك يا أبا ذر»(١).

وكان بعضُ السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء(٢)، يعني: لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته، وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل، ويخيفون المارَّة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة مُلْتَفَّةٌ بها، وكانوا مِن أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويُطَفِّفون فيهما، يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو رسول الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضُهم، وكفر أكثرُهم، حتى أحلَّ اللهُ بهم البأسَ الشديد، وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها، في سياق قصة سورة الأعراف أرجفوا نبيَّ الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق، ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود، فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]،

(١) انظر: صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها (٧٦/٢) (٣٦١)، قال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً.

(٢) ورُوِي ذلك في حديث لا يثبت لأنه منقطع، فقد رفعه محمد بن إسحاق إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٢٢/٥)، والمستدرك على الصحيحين، كتاب التاريخ، ذكر شعيب النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (٥٦٨/٢).

فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي جَهَّلوا به هذا الرسولَ الكريمَ الأمينَ الفصيحَ، فجاءتهم صيحةٌ أسكتتهم مع رجفةٍ أسكنَتهم.

وأمَّا في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وكان ذلك إجابةً لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٨].

ومَن زعم مِن المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف، وإنَّما عمدتُهم شيئان، أحدهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة. والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]؛ لأنَّه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذِكْرُ شعيبٍ بأنه أخوهم، وهذا الفَرْقُ مِن النفائسِ اللطيفةِ العزيزةِ الشريفةِ.

وأمَّا احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجرَّده على أنَّ هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن، ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمَّة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدلَّ على أنهم أمة واحدة أُهلِكُوا بأنواعٍ من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب ذلك الخطاب.

ونجَّى اللهُ شعيباً ومَن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥][1].

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٦٩/١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٤٦/٣، ٣٤٢/٤، ١٥٨/٦).

المبحث الثاني

الوقفات التدبرية من قصة شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه أهل مدين

وفيها إحدى وثلاثون وقفة تدبرية:

الوقفة الأولى:

إنَّ في مجيء قصة نبي الله شعيب عليه السلام، وقصص الأنبياء عليهم السلام، وما حصل لأقوامهم حينما كذَّبوا رسلَهم، ليتضمن أعظمَ الإنذار والتحذيرِ لِمن بُعِث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم مِن التَّكذيب والاستكبار عن إفرادِ العبادةِ لله، ويتضمن كذلك تحذيرَهم مِن ممارسة القبائح والمنكرات التي كان يُمارسها قومُ شعيبٍ مِن نقص المكيال والميزان، وبخس الناس حقوقهم، والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله[1]. فإنَّ ذلك يؤدي للعقوبة والهلاك، ولذلك قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿**وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٦]، فإنَّ عاقبتهم كانت الهلاك والدمار، وقال لهم أيضاً: ﴿**وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ**﴾ [هود: ٨٩]، فالحذر كلَّ الحذر لهذه الأمة مِن أن تحلَّ بهم العقوبة إن هم كذَّبوا وتعاطوا القبائح والمنكرات، كما حلت بالمكذبين والمعاندين والمستكبرين من قبلهم.

فالنظر في عاقبة المفسدين والمكذبين يبعثُ في النفس الحذرَ مِن سلوك سبيلهم، ونحن مخاطبون بالنظر والاعتبار، ولقد خاطب الله هذه الأمة بقوله: ﴿ **وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ * وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ * وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ**﴾ [الصافات: ١٣٣ - ١٣٨] لأجل أخذ العِظة والعِبرة مِمَّا حلَّ بقوم لوط عليه السلام.

(١) انظر: معارج التفكر ودقائق التدبر (٤٠٣/٤، ٤٦٣/١٠).

الوقفة الثانية:

ينبغي للداعيةِ والمصلحِ والمربي التلطفُ والرحمة والإشفاق مع مَن يدعوه وينصحه ويرشده، فشعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وكذلك إخوته الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وموسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كلهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، فهي كلمة عظيمةٌ فيها معنى اللطف والرحمة والإشفاق، فما أعظم أن يُقال: يا ولدي، يا والدي، يا أخي، يا أحبتي، بل حينما واجهوه بالاستهزاء والتَّنقُّص والتَّهكُّم في قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] كان ردُّه عليهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وهذا تَلَطُّف معهم في العبارة، ودعوةٌ لهم إلى الحقِّ بأبين إشارة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[1]. وتكرر منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مخاطبة قومه في سورة هود بلفظ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ستَّ مرات، ولنا فيه وفي أنبياء الله أسوة حسنة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فما أعظم وأنفع الرأفة والرحمة واللطف في النصح والإرشاد والوعظ والتربية، وهذا دأب الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما قال له قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] كان ردُّه عليهم بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧] ولم يقل لهم: بل أنتم السفهاءُ والكَذَبَةُ، وحاشاه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل خاطبهم بأسلوب فيه رحمةٌ وبيانٌ للحقيقة.

«إنَّ الداعي إلى الله يحتاج إلى الحِلم وحسن الخلق، ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضِدِّ ذلك، وأن لا يُحبطَه أذى الخلقِ، ولا يصده عن شيء من دعوته، وهذا الخُلُق كماله للرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فانظر إلى شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحسن خُلُقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يُسْمِعونُه الأقوالَ السيئة، ويقابلونه المقابلة الفعلية،

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٧٢/١).

وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحلم عليهم ويصفح، ويتكلم معهم بكلامِ مَن لم يصدر منهم له وفي حقِّه إلا الإحسان، ويُهَوِّن هذا الأمر، إنَّ هذا خُلُقُ مَن ظفر به وحازه فقد فاز بالحظِّ العظيم، وإنَّ لصاحبه عند الله المقامات العالية والنعيم المقيم، ويُهَوِّنه أنَّه يُعالِج أمماً قد طُبِعوا على أخلاقٍ إزالتُها وقلعُها أصعبُ مِن قلع الجبال الرواسي، ومرنوا على عقائد ومذاهبَ بذلوا فيها الأموالَ والأرواح، وقدموها على جميع المهمات عندهم، أفتظنُّ مع هذا أنَّ أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القولِ بأنَّ هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء؟ كلا واللهِ، إنَّ هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل، يُذَكَّرُون بنعم الله، وأنَّ الذي تَفَرَّدَ بالنِّعَم يَتَعَيَّن أن يُفْرَدَ بالعبادة، ويُذْكَر لهم من تفاصيل النعم ما لا يُعَدُّ ولا يحصى، ويُذَكَّرُون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام الله ووقائعه بالأمم المكذبة للرسل، المنكرة للتوحيد، ويُذَكَّرون بما في الإيمان بالله وتوحيده ودينه مِن المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية، الجاذبة للقلوب، الْمُسَهِّلة لكلِّ مطلوب، ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الإحسان إليهم، وبذل المعروف، وأقل ذلك الصبر على أذاهم، وتحمل ما يصدر منهم، ولين الكلام معهم، وسلوك كل سبيل حكمة معهم، والتَّنَقُّل معهم في الأمور بالاكتفاءِ ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله، والبداءة بالأهمِّ فالأهمِّ، وأعظمهم قياماً بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الإطلاق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

الوقفة الثالثة:

حينما يكونُ المربي والمصلحُ والداعية مِن البيئة نفسها التي عاش فيها ومن قومه، فإنَّ ذلك أدعى لِمعرفة حالِهم وسلوكِ الطرق المناسبة لدعوتهم وتربيتهم وإصلاحهم ومخاطبتهم، قال تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾ [الأعراف: ٨٥]، فلقد كان أخاً لهم في النَّسَب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص٣٦٤).

وهكذا هود وصالح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [الروم: ٤٧].

فعلى المصلحين والمربين الاهتمام بمجتمعاتهم وبيئتهم التي يعيشون فيها، وعلى مَن يهتمُّ بأمور الدعوة والتربية والإصلاح أن يُراعِيَ ذلك حينما يُرسِل المربين والدعاة والمثقفين(١)، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الوقفة الرابعة:

إنَّ أعظم وأوَّل ما يُدْعَى إليه هو عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من كلِّ معبود سوى الله، ولذلك بدأ شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالدعوةِ إلى عبادةِ الله وإفراده بالألوهية قبل أن يدعوَهم إلى الإيفاء بالكيل والميزان، وعدم ظلم الناس، وترك الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]. وهكذا الأنبياء نوح وهود وصالح عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، بل قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والواجبُ على الدُّعاة والْمُرَبِّين والمصلحين الاهتمامُ بالدعوة إلى التوحيد، وإلى عبادة الله، وهي وصيةُ الأنبياء وأبي الأنبياء: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا

(١) ولا يعني ذلك عدم الدعوة والنصح والإرشاد في المجتمعات والأماكن الأخرى، فلقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرسل صحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للتبليغ ونشر دعوة الإسلام، فلقد أرسلهم إلى القبائل، وإلى فارس، والروم، ومصر، واليمن، وعمان، وغيرها من البلدان. انظر: البداية والنهاية (٥٠٣/٤).

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣]، ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بعث معاذَ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نحو أهل اليمن: «إنك تقدُم على قومٍ مِن أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يُوَحِّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنَّ الله فرض خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أنَّ الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ مِن غنِيِّهم فتُرَدُّ على فقيرِهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتَوَقَّ كرائمَ أموالهم»(١).

الوقفة الخامسة:

على المصلح والداعية والمربي التسلُّحُ بسلاح العلم والمعرفة والحجة والبينة، فهو أعظمُ سلاحٍ يُواجَه به الجهَّالُ والمجادلون، ويُدحَض به الشبهات والإشكالات، ويُنَوِّر به السائلين عن العلم والمعرفة، ويُبَصِّر به الناس، قال شعيبٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٨٨]، وهكذا قال صالح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وما من نبيٍّ ورسول إلا وقد أيَّده اللهُ بالحُجَج والمعجزات التي تدل على أنه رسولٌ حقٌّ مِن عند الله.

وأعظمُ معجزةٍ وحجةٍ وبينةٍ خلَّدها الله لنا هي كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦، ٧٧].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى (١١٤/٩) (٧٣٧٢)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٣٧/١) (١٩).

وليعلم أنَّ التقصيرَ في جانِبِ العلم والمعرفة والحُجَّة والبيان يُؤَدِّي إلى ضَعف مَن يمارس عملية الدعوة والإصلاح والتربية أمام الخصوم المبطلين والدعاة المضلين، وقد ينجَرُّ للباطل والشبهات بسبب ذلك، ويؤدي كذلك إلى عدمِ إزالة الشبهات والإشكالات أمام السائلين والحائرين، وإلى ضعفِ الإسلامِ في نظرِهم.

الوقفة السادسة:

إنَّ في أمرِ شعيبٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قومَه بإيفاء الكيل والوزن وإكماله، والنهي عن نقصان الناس في أشيائهم، والنهي عن الإفساد في الأرض، إنَّ في أمره بذلك بعد أمره بعبادة الله وتوحيده لأعظمُ الدلالة على أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بُعِثوا للإصلاح الدينيِّ والدنيويِّ، ولإصلاح حال الخلق مع الخالق، وحال الخلق مع الخلق، وأنَّ دعوتهم ليست منحصرةً ومقصورةً على توحيدِ اللهِ وعبادته فقط، بل هي دعوة أيضاً إلى السلوك والقِيَم، ونبذ الظلم والفساد، وإعطاء الناس حقوقهم، والسعي بالإصلاح في الأرض وترك الفساد.

وعلى المصلحين والمربين والقياديين أن يحذوا حذوَهم في الإصلاح، وأن يهتموا بأمور الدين والدنيا والآخرة، ولا يفصلوا أمور الدنيا عن الدين، ولا أمور الدين عن الدنيا، ولقد أعلنها شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صراحةً لقومه حيثُ قال لهم: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨]، فكأنَّه حَصَر دعوتَه لقومه بالإصلاح، وصَدَق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، «فالأنبياء بعثوا بالإصلاح والصلاح، ونهوا عن الشرور والفساد، فكل صلاح وإصلاح ديني ودينوي فهو مِن دين الأنبياء، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل، ووضع للخلق الأصول النافعة التي يجرون عليها في الأمور العادية والدنيوية، كما وضع لهم الأصول في الأمور الدينية، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك»[1].

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص٣٦٤).

الوقفة السابعة:

إنَّ على المربين والمصلحين والدعاة أن يبدؤوا في أمور التربية والإصلاح والدعوة بالأهمِّ فالمهمِّ، فشعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بدأ بالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، ثُمَّ دعاهم إلى ترك المنكرات الأخرى المنتشرة والفاشية في مجتمعهم مِن النهي عن إنقاص الناس حقوقهم، وترك الإفساد في الأرض، والأمر بالإيفاء بالكيل، ومِن النهي عن تهديد الناس في الطرقات وسلبهم أموالهم، والصد عن دين الله، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦]، «بدأ الدعوة بالأمر بالتوحيد لأنَّه أساس العقيدة وركن الدين الأعظم، وقفّى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا؛ لأنَّ هذا كان فاشياً فيهم أكثر من سائر المعاصي، فكان شأنه معهم كشأن لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ بدأ ينهى قومه عن الفاحشة التي كانت فاشية فيهم، فالبداية بدعوتهم إلى توحيد العبادة لأنه ركن الدين الأعظم الذي هدمته الوثنية، والتثنية بالأوامر والنواهي المتعلقة بحالهم الغالبة عليهم[1].

الوقفة الثامنة:

إنَّ في قصة مدين قوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأعظم واعظٍ وزاجرٍ لكلِّ مَن يتعامل بالكيل والوزن[2]، فليحذر كلَّ الحذر مَن نقص المكيال والميزان حينما يزن ويكيل للناس، والواجب عليه مراقبة الله والعدل في الوزن والكيل، ولا يظلم الناس وينقصهم حقوقهم، وعليه أن يوفيهم إياها كاملة من غير نقص.

(١) انظر: تفسير المنار (٨/٤٨٨، ٤٩٣).

(٢) وكذلك التعامل في حساب المساحات والمقاسات مثلًا للأراضي والملابس وغيرها، فالواجب في ذلك كله العدل وعدم الظلم.

ولقد نصح نبيُّ الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه في ذلك، ونَوَّع لهم في النصيحة والأسلوب، فتارة يأمرهم، وتارة ينهاهم، وتارة يخص، وتارة يعم، قال تعالى: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥][1]، وقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٥]، وقال: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]، والبخسُ أعمُّ مِن نقص المكيل والموزون؛ فإنَّه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، وكلٌّ مِن البخسين فاشٍ في هذا الزمان، فأكثر التجار باخسون مُطَفِّفون مخسرون فيما يبيعون وفيما يشترون، وأكثر المشتغلين بالعلم والآداب وكتابة السياسة بخَّاسون لحقوق صِنفهم[2]. «فالآية عامة دالَّة على أنه لا يجوز نقص أي إنسان أي شيء من حقوقه»[3]. فيحرم عليك أيها المسلم أن تعيب سلعة أخيك، وأن تُزهِّده فيها، وأن تخدعه عنها، كل ذلك مِن أفعال الكفرة الحرام، وهذا يدل على أنَّ أموال الناس محترمة، وأنه لا يجوز لأحد أن يبخس أحد شيئاً، ولا ينقصه، فأموال الناس لا يجوز أخذُها[4]. وعلى الجهات ذات العلاقة في الحكومات من وزارة التجارة، والشؤون البلدية وغيرها تذكير التجار والممارسين للبيع والشراء أهمية العدل، وخطورة ظلم الناس حقوقهم وأشياءهم في البيع والشراء، وعلى هذه الجهات اتخاذ الوسائل المناسبة لتحقيق العدل، ونبذ الظلم، وتوعية الناس والمجتمع.

(١) تأمل لفظتي «الناس» و«أشياءهم»، «الناس» تشمل المؤمن والكافر، الذكر والأنثى، الصغير والكبير، الحر والعبد، و«شيء» تشمل كل شيء حسي أو معنوي، حسي في أموالهم أيّاً كانت هذه الأموال نقدية أم عينية كالأراضي، أو معنوية كتقدير الدرجات وكتابة التقارير. ويدخل في «أشياءهم» حقوق المراجعين للدوائر الحكومية والقطاع الخاص.

(٢) انظر: تفسير المنار (٤٨٨/٨).

(٣) معارج الصعود إلى تفسير سورة هود (ص٢٠٨).

(٤) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٥٨٧/٣).

الوقفة التاسعة:

لقد تنوعت دعوةُ شعيب عليه السلام لقومه بالإصلاح وترك الفساد، فتارة ينهاهم عن الفساد في الأرض بالكفر وارتكاب المعاصي بعد إصلاحها ببعثة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وتارةً ينهاهم عن الفساد في الأرض بكلِّ ما يهدد صلاحها وإصلاحها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وتارةً يُخَوِّفهم بعاقبة المفسدين مِن قبلهم، فإنَّ عاقبتهم الدمار والهلاك في قوله تعالى: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، بل أخبرهم أنه ما يريد من دعوته إلى عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والوزن، وعدم بخس الناس أشياءهم إلا الصلاح لهم في دينهم ودنياهم وأعمالهم وقلوبهم وأحوالهم في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨][1]. إنَّ هذا التَّنوُّع في الدعوة للإصلاح لَيدل على أهميته، وهذه الأمة مخاطبة بالصلاح والإصلاح فرداً فرداً، ولا سيما قادتها وأهل الحل والعقد فيها، وشعوبها تبع لهم في ذلك، فيتأثرون بصلاحهم وفسادهم.

وكلُّ واحد مِنَّا مطالب بإصلاح نفسه وأهله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، فإنَّ في صلاح النفس والأسرة صلاحٌ للمجتمع والبلد. «إنَّ الإفساد في الأرض يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري بالظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام، وإصلاحها هو ما يصلح به أمرها وحال أهلها من العقائد الصحيحة، المنافية لخرافات الشرك ومهانته، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فقد أصلح اللهُ تعالى حالَ البشر بنظام الفطرة وكمال الخلقة، ومَكَّنهم من إصلاح الأرض بما آتاهم من

(١) أفدت بيان معاني الآيات من المختصر في التفسير (ص١٦١).

القوى العقلية والجوارح، وبما أودع في الأرض من السنن الحكيمة، وبما بعث به الرسل من مكملات الفطرة، فالإفساد إزالةُ صلاحٍ أو إصلاح، وقد كان قومُ شعيبٍ مِن المفسدين لِلدِّين والدُّنيا كما يُعْلَم مِن الآيات»[1].

الوقفة العاشرة:

إنَّ فيما ذكر الله عن نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما قال لقومه ناهياً ومُحَذِّراً: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦] لَنَهي وتحذيرٌ لكلِّ مَن اتَّخذ الطرق الحسية والمعنوية، وقعد يهدد ويتوعد بالأذِيَّة والضرر لِمَن سلك دين الله وتَمَسَّك بشرعه وسبيله، وأخذ يسعى بالصدِّ عن دين الله لِمَن أراد الاهتداء به، وهمُّه وطلبُه أن يكون دين الله وسبيله ومنهجه مُعْوَجّاً.

وما أكثر هؤلاء في هذا الزمانِ، فقد امتطوا عدة وسائل لأجل ذلك، فقد امتطوا وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية للنيلِ مِن الإسلام وأخلاقه وآدابه والتشكيك فيها، وهم بِفعلهم هذا يَصُدُّون مَن أراد دخولَ هذا الدين العظيم والتعرُّف عليه والقراءة عنه، وكذلك يَصُدُّون أهلَه بالتَّمَسُّك بِشُعَب الإيمان والمحافظة عليها، والتَّزَوُّدِ منها.

لقد نهى نبيُّ الله شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قومَه عن ثلاثة أشياء:

أولها: قعودهم على الطرقات التي توصل إليه، يخوفون مَن يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته.

ثانيهما: صدُّهم مَن وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام والاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة إلى سعادة الدارين.

ثالثهما: ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عِوَج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها[2].

---

(١) تفسير المنار (٤٨٩/٨).

(٢) انظر: تفسير المنار (٤٩٤/٨).

«فشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ منع القومَ مِن أن يمنعوا الناس مِن قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاثة. وإذا تأملت علمت أنَّ أحداً لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة»[1].

الوقفة الحادية عشرة:

لقد جمع نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ في أسلوب دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، فقال مُرَهِّباً: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وقال مُرَغِّباً: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠][2]. وصور الترغيب والترهيب ظاهرة في دعوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ترغيب، وقوله: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] ترهيب.

وهكذا ينبغي على الْمُرَبِّين والمصلحين والدعاة أن يجمعوا بين أسلوب الترغيب والترهيب، فالترغيب للإقدام والإقبال والمسارعة لكل ما فيه خير وصلاح، والترهيب للابتعاد والتحذير والترك لكل ما فيه شرٌّ وضرر وفساد.

الوقفة الثانية عشرة:

إنَّ مِن أعظم صفات المربي والداعية والمصلح والناصح ألا يخالف قولُه وفعلُه ما يدعو إليه، فإنَّ ذلك مِن أسباب نزع الثقة فيهم وفي منهجهم، ولذلك قال نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]؛ «أي: لست آمركم بالأمر إلا وأنا أولُ فاعلٍ له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أوَّل مَن يتركه، وهذه هي الصفةُ المحمودةُ العظيمةُ، وضدها هي المردودة الذميمة، كما تَلَبَّس بها علماءُ

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (١٨٣/٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٧٣/١)، وتفسير فتح القدير للشوكاني (٧٢٢/٢)، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٣/٨).

بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤتَى بالرجل فيُلقى في النار، فتتدلق أقتاب بطنه - أي: تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»(١).

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، أي: ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي(٢).

الوقفة الثالثة عشرة:

على المربي والمصلح التذكير بنعم الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، كَثَّر عددكم بعد القلة، وكَثَّركم بالغِنى بعد الفقر، وكَثَّركم بالقدرة بعد الضعف.

فالعبدُ والمرءُ إذا تَذَكَّر نعمةَ الله عليه وكثرتها حملَه ذلك على شكر المنعم، وهو الله المستحق للثناء والحمد والشكر، وحمله كذلك على طاعته والبعد عن معصيته(٣).

وعلى العبد أن يتذكَّر نِعَم الله عليه، ولذلك حينما أراد الملأُ الذين استكبروا مِن قوم شعيب إكراه مَنِ اتبع شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ للعودة إلى الكفر تذكَّروا نعمةَ الله عليهم حينما نجَّاهم مِن الكفر، قال تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (١٢١/٤) (٣٢٦٧)، وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة مَن يأمرنا بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٢٢٤/٨) (٢٩٨٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٧٢/١).

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (١٨٣/٧).

﴿إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فنسبوا النجاةَ مِن الكفر والهداية لتوحيده لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا اعترافٌ منهم وإقرارٌ بفضل الله عليهم، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه العبد.

الوقفة الرابعة عشرة:

قد يتعرضُ المسلمون والمؤمنون والدعاةُ والمصلحون إلى الأذِيَّة الشديدة، والإخراج من بلدانهم ومجتمعاتهم التي وُلِدوا ونشأوا فيها، وما أشد ذلك على النفس، أو التهديد بذلك من الظلمة والكفار والطغاة والمستكبرين. وحال هؤلاء المؤمنين حال مَن قال الله فيهم: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. وليتذكر هؤلاء المؤمنون قولَ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وقول الله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨]، وقول الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ففي هذه الآيات أعظم العزاء والمواساة لهؤلاء المؤمنين المضطهدين، وفيها دعوة للتمسك والثبات بهذا الدين، والصبر على ما يتعرضون له، وهذه سُنَّةُ الله.

الوقفة الخامسة عشرة:

مهما بلغ إعراض المعرضين، وتكذيب المكذبين، واستهزاء المستهزئين، فإنَّ ذلك لا يكون عائقاً عن دعوة الناس، وتربيتهم، وإصلاحهم، فلا تترك الدعوة والإصلاح والتربية لأجل الإعراض والتكذيب والاستهزاء، فهذا شعيب عليه السلام حينما واجهَه المكذبون والمعرضون والمستهزئون بقولهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]،

وبقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، وبقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وبقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، وبقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٨]، استمرَّ في دعوتهم إلى عبادة الله، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، ولم يترك دعوتهم إلى أن حقَّ عليهم عذاب الله ونزل به.

وهذا حال إخوانه الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٩]، ووظيفة الرسل البلاغ والإنذار، والهداية مِن الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

الوقفة السادسة عشرة:

على العبد أن يُظهِر توكلَه على الله في جميع أموره، في الرخاء والشدة، فَيُسْنِد أموره ويفوضها لله، ويحسن توكله واعتماده عليه جَلَّوَعَلَا، فهو الذي بيده مقاليد الأمور.

وحينما هدَّد الملأ الذين استكبروا من قوم شعيب شعيباً ومَن آمن معه بالإخراج مِن القرية، كان ردُّهم عليهم عند سماعهم هذا التهديد مِن أعدائهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] «اعتمدنا على الله في أن يُثَبِّتنا على الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله»[1]، و﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ مفيدٌ للحصر، أي: عليه تَوَكَّلنا لا على غيره،

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني (٣١٩/٢).

وكأنَّهم في هذا المقام عزلوا الأسباب، وارتقوا عنها إلى مسبب الأسباب. وفي هذه الآية وفي قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما في آية هود: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى محض التوحيد منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومفيدة للحصر أيضاً، وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد إلا على الله تعالى(١).

الوقفة السابعة عشرة:

إنَّ في دعاء شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] لَدليلٌ عظيمٌ على أهمية الدعاء في حياة العبد، وألا يقلل مِن شأنه وأهميته، فعلى العبدِ أن يدعوَ الله في الأمور العظيمة، والأمور الحقيرة، يدعوه في الرخاء والشدة، في السراء والضراء.

والدعاء أعظم ما يستنصر به على الأعداء، كما صنع شعيب وإخوته الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، «فقد دعا شعيب وأتباعه ربَّهم أن يحكم بينهم وبين القوم الكافرين بالحق، فينصر صاحب الحقِّ المظلوم على الظالم المعاند، فأنت يا رب خير الحاكمين»(٢).

الوقفة الثامنة عشرة:

لِيعلم العبد أنَّ التوفيق بيد الله وحده، وقد قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] وهذا أسلوب حصر، فالتوفيق لا يملكه أحدٌ غيرُ الله، وإذا علم العبد ذلك فليطلبه مِن الله، ولو يملكه أحدٌ لملكه الناس لأقاربهم ولأعز مَن يريدون، وبالأخص الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. وشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سَمَّى إرادته الإصلاح توفيقاً، وجعله مِن الله، لا يحصل في وقت إلا بالله؛ أي: بإرادته(٣). والتوفيق: جعل الشيء وفقاً لآخر؛ أي: طبقاً له، وهو ضد الخذلان، وهو الفوز والفلاح، ولا يكون إلا مِن

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (١٨٨/٧، ٤٨/٩).
(٢) انظر: المختصر في التفسير (ص١٦٢).
(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٣١٦/١١).

الله وحده، فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وما توفيقي لإصابة ذلك فيما أستطيعه منه إلا بحول الله وقوته، وفضله ومعونته، وأعلاها ما خصَّني به دونكم مِن نبوته ورسالته(١).

الوقفة التاسعة عشرة:

على العبد أن يُعَلِّق أموره المستقبلية بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم وحال الصالحين، فشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومُه قالوا لَمَّا أرادهم قومُهم على الكفر بالله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

ولقد أدَّب الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣]، وقال إسماعيل لوالده إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، وقال والد الفتاتين الصالح: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقالت بنو إسرائيل: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۚ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، فلنتأدَّب بهذا الأدب الرباني، والهدى النبوي.

«وفي رد شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه بقولهم: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] دلالة على أنَّ الإنسان لا يغترُّ بإيمانه وصلاحه، فإنَّ الأنبياء والصالحين عَلِموا أنَّ ثباتهم على الدين إنما هو بمشيئة الله، لا من عند أنفسهم»(٢).

(١) انظر: تفسير المنار (١١٨/١٢)، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٣١٦/١١).
(٢) انظر: القرآن تدبر وعمل (ص١٦٢).

الوقفة العشرون:

مَن أنعم اللهُ عليه بقريبٍ أو بقبيلةٍ أو جماعةٍ أو مسؤولٍ له شأنٌ ووزنٌ ومكانةٌ في المجتمع فليستغلَّ ذلك كله في الدعوة والإصلاح، فإنَّ القبيلة والقرابة والمسؤولين يحمون مَن ينتمي إليهم، والناس كذلك تُقَدِّرُ وتحترم هؤلاء، حتى وإن لم يوافقوه على دعوته وإصلاحه، وقد قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿**وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ [هود: ٩١]. «وهذه الآية تدل على أنَّ المسلم - وإن كان لا يجوز له أن يدعو إلى الرابطة العصبية - لا مانع مِن أن ينتفع بعصبيته ضد أعداء دعوته، وإن كانوا لا يَمُتّون إلى الدين بصلة، وإنما يَنْصُرون بعواطفهم النّسبية، فيمنعون عنه الشرَّ، وقد وقع مثل هذا للرسول صلى الله عليه وسلم من عمه أبي طالب، حتى لم تستطع قريش أن تؤذيه في حياته، ولا تخرجه من بلده، وما ذلك إلا عصبية قومية نَسبية لا تَمُتُّ إلى الإسلام بصلةٍ، نفع الله بها هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد اجتمع قومُ صالحٍ وتحالفوا على قتلِه سِرّاً بالليل خشيةَ أن يَطَّلِعَ أهلُه على ذلك فيوقعوا بهم، كما قال تعالى: ﴿**وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ**﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]. ونبيُّ الله لوطٌ عليه السلام تَمَنَّى أن تكون له عشيرةٌ يرجع إليها تناصره على قومه الذين عصوه وأرادوا الاعتداء على ضيفه، كما قال تعالى عنه: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [هود: ٨٠]، فلو كان معه عشيرة وعصبية لدافعوا عنه، فالعصبية ربما نفعت، ولكن لا تُجعل رابطةً ينادى بها، فإنَّ ذلك ممنوع بالكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين»[1]. وقد كان صلى الله عليه وسلم يَعْرِضُ نفسَه على القبائل لتنشر الإسلام، ولحمايته صلى الله عليه وسلم لتبليغ الإسلام؛ فوفَّق اللهُ الأنصارَ رضي الله عنهم.

(١) انظر: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود (ص٢٢١).

الوقفة الحادية والعشرون:

على الداعية والمصلح والواعظ أن يتقي الله في دعوته، فلا يطمع[1] في مال أو أي ثواب أو أي عَرَض مِن أعراض الدنيا، حاله حال نبي الله شعيب وسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. وهكذا قال إخوته نوح، وهود، وصالح، ولوط عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على ما أنا فيه من ادِّعاء الرسالة لئلا يظن أنَّه دعاهم للرغبة فيما عندهم[2].

الوقفة الثانية والعشرون:

على الداعية والمصلح والواعظ والمربي أن يُخَوِّفَ الناس من عذاب الله، وأن يخوف كذلك بعاقبة المكذبين، فشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٧٩]. وحذرهم كذلك عاقبة المكذبين مِمَّن قبلهم، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وحينما أرسلت قريشٌ عتبة بن ربيعة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتكلم معه في الكف عن تبليغ دعوة ربه، وعرض عليه ما تريد قريش، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ

(١) ولا أقصد من ذلك أنه لا يجوز أخذ المال مطلقاً، وإلا فإن الواقع الدعوي وبالذات في هذا العصر يحتم علينا أن نفرغ الدعاة في سبيل الله لأجل الدعوة، وأن نكفيهم لقمة العيش وما يحتاجونه من متطلبات الحياة. وانظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/٢٦).

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٥٥/١٢).

﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ - ١٣]، فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، فرجع إلى أهله ولم يخرج لقريش(١).

الوقفة الثالثة والعشرون:

على العبد أن يرضى بما قسم اللهُ له من الرزق، ولا يسلك مسالك في جلب الرزق لم يأذن بها الله ولم يرضها لعباده. ولقد قال نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، فقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ تعليلٌ للنهي؛ أي: لا تنقصوا المكيال والميزان لأني أراكم بخير؛ أي: بثروةٍ واسعةٍ في الرِّزق، فلا تُغَيِّروا نعمةَ الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده، ففي هذه النعمة ما يغنيكم مِن أخذ أموال الناس بغير حقها.

وقال لهم أيضاً: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] أي: ما يُبقِيه لكم مِن الحلال بعد إيفاء الحقوقِ بالقسطِ أكثر خيراً وبركة مِمَّا تُبقونه لأنفسكم مِن التطفيف والبخس والفساد في الأرض(٢).

وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ الذي أغناه الله بمال لا يجوز له أن يطمح إلى حقوق الناس، وأنَّه يُغضِب اللهَ إن فعل، بخلاف المضطر الجائع الذي لا يجد شيئاً، فقد يُعْذَرُ في الجملة، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩](٣).

ودَلَّ قولُه تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أنَّ الشيء القليل الذي يبقى لكم طاهراً مع تجنب المكوس والتطفيف، فإنَّه خير مما تأخذونه بلا وجه شرعي(٤).

---

(١) انظر: تفسير الكشف والبيان للثعلبي (٢٦٤/٢٣).
(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (٧٢٠/٢).
(٣) انظر: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود (ص٢٠٦).
(٤) المصدر السابق (ص٢٠٩).

الوقفة الرابعة والعشرون:

على الدعاة والخطباء والإعلاميين الاستفادة من طريقة وأسلوب شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مخاطبته وحسن حواره ودعوته لقومه ورَدِّهِ وحِلمه عليهم حينما اسْتَفَزَّه واستهزأ به قومه، وقد تقدم أنه سُمِّي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بخطيب الأنبياء(١).

الوقفة الخامسة والعشرون:

إنَّ النَّاظِر والمتأمِّل لقصة نبيِّ الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يظهر له ظهوراً جلياً اهتمامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بإصلاح الجانب الاقتصادي لقومه، وهي دعوةٌ للقادة والحكام والولاة والساسة أن يهتموا بهذا الأمر ويُوْلُوه اهْتِمامهم وعنايتهم، ولْيُعلم أن أهم مقومات الشعوب والأمم والبلدان النمو الاقتصادي، والأمن المجتمعي، قال تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ**﴾ [قريش: ٣، ٤]، فقصة شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أفادت عدم نقص الكيل والميزان، وعدم الإفساد في الأرض، وعدم بخس الناس أشياءهم، ويدخل في ذلك أخذ الرشوة، وعدم قطع الطريق، إلى غير ذلك مِن الفوائد التي تظهر للقارئ المتأمل، وهذا اهتمامه بالنمو الاقتصادي، ولذلك كان رد قومه عليه: ﴿**قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ**﴾ [هود: ٨٧]، ففي قوله: ﴿**أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ**﴾ ظاهرٌ سَعْيُه للإصلاح الاقتصادي.

وأمَّا ما يتعلق بالأمن المجتمعي فقد ظهر جليّاً في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ [الأعراف: ٨٦].

الوقفة السادسة والعشرون:

لقد كان نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُمَثِّلُ النبي المبلغ عن الله لقومه، ويُمَثِّل كذلك الحاكم والوالي الشرعي على قومه، وإنَّ في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ**

(١) في المبحث الثاني، والحمد لله وجد في هذا العصر دورات تدريبية لتطوير الذات في مجالات شتى، فعلينا أن نطور ذاتنا في الدعوة إلى سبيل الله، ونختار من هذه الدورات الصالح والأحسن لنا.

﴿مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] لأعظم رسالة ونصيحة لِكُلِّ مَن وَلِيَ ولاية كبيرة كانت أم صغيرة، أن يجعل تطبيق النظام واللوائح والقانون أمام عينيه، فيكون أول المطبقين لها والممتثلين لتشريعاتها، وأعظم ما يُمتثل ويُطَبْق هو كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جعله الله صالحاً لكل زمان ومكان، وهناك أنظمة وقوانين لا تخالف الكتاب ولا السنة، بل هي مِن المصالح والتنظيمات التي في الغالب لا تخرج عن الكتاب والسنة أو لا تخالفهما.

فلو أنَّ المسؤولين كانوا أول العاملين بالأنظمة والقوانين لَعَمَّ الصلاح والإصلاح، ولتبعهم في ذلك الرعية الذين تحت أيديهم.

الوقفة السابعة والعشرون:

على العبد أن يستغفر الله، فيطلب المغفرة منه، ويتوب إليه من ذنوبه، ولقد أمر نبيُّ الله شعيبٌ قومَه بالاستغفار والتوبة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، فالله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بالتائبين، ومُحِبٌّ لهم، كما دلَّ عليه وصفه بالودود، ومن أراد أن يكسب رحمة الله ومحبته فليتب إلى الله وليستغفره من ذنوبه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وتأمَّل في هدي مَن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان تُعَدُّ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «رب اغفر لي، وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور»(٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٦٧/٨) (٦٣٠٧).
(٢) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذ اقام من المجلس (ص٧٨١) (٣٤٣٤)، وقال الترمذي عقب إخراجه: هذا حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، انظر نفس الإحالة.

الوقفة الثامنة والعشرون:

على العبد أن يكون غضبُه لله لا لأجل نفسه، وأن يغارَ لله ولشرعه ودينه، فشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما قال له قومه: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، فلم يردَّ عليهم انتصاراً لنفسه وغضباً لها، بل غضب لأجل الله، وأخذته الغيرة لله ولدينه، فقال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

الوقفة التاسعة والعشرون:

إنَّ الناظر والمتأمل لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٠ - ٩٣]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥]، ولقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، إنَّ المتأمل في ذلك كله ليدرك أنَّ العزة والغلبة لأمر الله جَلَّ وَعَلَا وإن علا أمرُ الباطل في بعض الأحيان، ولقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. وعليه فينبغي للعبد ألا يتوقف عن نصر دين الله والدعوة إليه وإن لم ير النتائج أمام عينيه، فما عليه إلا البلاغ، والهداية والتوفيق بيد الله، قال تعالى: ﴿إِنْ

﴿عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وحينما يعلم العبد أن العاقبة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فإنَّه يبقى متفائلاً في هذه الحياة، ولا مكان لليأس في حياته.

الوقفة الثلاثون:

على العبد أن يأخذ العظة والعبرة من كتاب الله على وجه العموم، ومن قصص الأنبياء على وجه الخصوص، فبعد أن ذكر الله قصة شعيب عليه الصلاة والسلام في سورة الشعراء، قال في نهاية القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠]، بل تكررت هذه الآية من هذه السورة في قصة كل نبي ذكر فيها عليهم السلام، وما ذلك إلا لأهمية أخذ العظة والعبرة من قصصهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

الوقفة الحادية والثلاثون:

على العبد أن يحذر من الظلم وعاقبته، ليحذر من ظلم نفسه، وليحذر من ظلم غيره، فالظلم عاقبته أليمة، ولقد انتقم الله من قوم شعيب حينما ظلموا، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظلة[١].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٤٤/٤).

الخاتمة

الحمد لله على ما أنعم ووفق في الكتابة في هذا البحث والعيش مع كتاب الله وآياته، وإليك أيها القارئ الكريم بعض النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال هذا البحث:

١. أهمية تدبر القرآن العظيم، وليعلم العبد أنَّ التدبر أمر زائدٌ على مجرد القراءة والاستماع.

٢. ليجعل قارئ القرآن هدفه الأكبر والأعظم هو القراءة بالتدبر، لا الختم والإكثار دون تدبر وتأمل لما يقرأ، فالقراءة بتدبُّر وتأمل وإن كانت قليلة المقدار أفضل من القراءة الكثيرة جدّاً دون تدبر، وتقدمت الآثار الدالة على ذلك.

٣. لقد أمر الله عباده بالتدبر لكلامه، ووَبَّخ وذَمَّ مَن لم يتدبر كلامه، فليحذر العبد أن يكون ممن ذمه الله ووبخه.

٤. إنَّ مِن أعظم ثمرات التدبر لكتاب الله أن يظهر أثر ذلك على القلب والجوارح، فيزداد إيمان العبد، ويمتثل ما ورد في كتاب الله من أوامر أو نواهي.

٥. على العلماء وطلبة العلم والمتخصصين أن يُبَيِّنوا للناسِ أهمية تدبر كتاب الله، ويوضحوا لهم طُرُق ذلك، ويعينوهم على تحقيق تدبر كتاب الله، ومن المهم أن تكون لهم مع الناس وقفات تدبرية لكتاب الله وآياته.

٦. على المربي والمصلح والداعية والناصح أن يكون رفيقاً حليماً بحال مَن يوجهه ويرشده، كما أنَّ عليه أن يبدأ بالأهم فالمهم في ذلك.

٧. أهمية العلم والحجة والبينة للمصلحين والدعاة والمربين.

٨. إنَّ مِن أهم أسباب نزول عذاب الله وهلاك الأمم والشعوب هو الاستكبار عن الإيمان بالله والسعي في الأرض بالفساد وظلم الناس وبخسهم حقوقهم.

٩. إنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بُعِثوا بالإصلاح الديني والدنيوي.

١٠. على المربي والمصلح والواعظ والداعية والناصح أن يُنَوِّع في الأساليب والطرق لتتناسب مع حال الناس.

١١. إنَّ السعي لإصلاح الجانب الاقتصادي، والاهتمام بأمن المجتمعات مِن أهم الأمور التي تساعد على استقرار الشعوب والبلدان.

١٢. على العبد ألا يخالف قوله فعله.

١٣. العزة لله ولدينه ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين، وإن طال ليل الظالمين والمفسدين والمتكبرين والطغاة والكافرين.

ومن التوصيات التي أوصي بها:

١. زيادة التأمل والاستنباط والتدبر لقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ودعوة الباحثين لذلك، فالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كانوا يسوسون ويرعون أقوامهم بالمنهج والطريقة التي بينها الله لهم، وعلينا الاقتداء بهم؛ لأنهم جمعوا بين الإصلاح الديني والدنيوي.

٢. الاهتمام بموضوع التدبر في المؤسسات التعليمية، وحِلَق القرآن الكريم، واتخاذ مناهج تأصيلية وتطبيقية مناسبة لذلك.

المراجع والمصادر

- **أخلاق حملة القرآن**: لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري (٣٦٠هـ)، حققه وعلق عليه: عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
- **البداية والنهاية**: للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١ - ٧٧٤هـ)، حققه: د. محي الدين ديب مستو وآخرون، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**: لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبي الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- **تدبر القرآن الكريم (دراسة تأصيلية)**: لمحمد بن عبد الجواد الصاوي، رسالة دكتوراه بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بإشراف الأستاذ الدكتور محمد بن عبد العزيز العواجي (١٤٣٦ - ١٤٣٧هـ)، غير مطبوعة.
- **تدبر القرآن الكريم**: لعبد اللطيف بن عبد الله التويجري، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ)، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض.
- **تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار**: تأليف: الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ)، والشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ)، تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **تفسير القرآن العظيم**: لأبي الفداء ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، المعروف بتفسير ابن كثير، الطبعة الثانية (١٤٢٥هـ)، دار طيبة، الرياض، الإصدار الثاني، تحقيق: سامي محمد سلامة.
- **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: للإمام فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، المعروف بتفسير الفخر الرازي، (١٤٢٣هـ)، دار الفكر، بيروت، قدم لها: خليل محي الدين الميس.
- **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المعروف بتفسير الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨هـ)**: صححه: محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ - ١٩٩٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **تفسير النسفي المسمى مدارك التنْزيل وحقائق التأويل**: للإمام عبد الله بن أحمد النسفي (٧١٠هـ)، تحقيق: الشيخ مروان محمد الشعار، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، دار النفائس، بيروت.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ)، اعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ)، دار ابن الجوزي، الدمام.
- **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**: الطبعة الثانية (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة.
- **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)**: تأليف: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، اعتناء: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).
- **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، المعروف بجامع الترمذي**: للإمام الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، والطبعة بأحكام العلامة الألباني، واعتنى بها: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.
- **الخلاصة في تدبر القرآن الكريم**: للدكتور خالد بن عثمان السبت، الطبعة الأولى (١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)، دار الحضارة، مركز تدبر للدراسات والاستشارات، الرياض.
- **سنن سعيد بن منصور (٢٢٧هـ)**: دراسة وتحقيق: د. سعد بن عبد الله آل حميد، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، دار الصميعي، الرياض.
- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: تأليف: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثالثة (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- **صحيح ابن خزيمة**: لإمام الأئمة أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (٢٢٣ - ٣١١هـ)، حققه وعلق عليه: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، الطبعة الثالثة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان.
- **صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١هـ)، تشرف بخدمته والعناية به: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى (١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م)، دار المنهاج، جدة، دار طوق النجاة، بيروت.
- **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**: للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ)، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ)، دار عالم الفوائد، مكة، ضمن آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي.
- **غرائب التفسير وعجائب التأويل**: للشيخ تاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: الدكتور شمران سركال يونس العجلي، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.
- **فتح القدير**: لمحمد بن علي الشوكاني، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ)، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة.
- **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**: لأبي عبيد القاسم بن سلام، دراسة وتحقيق: الأستاذ أحمد بن عبد الواحد الخياطي، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
- **الفوائد**: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **القرآن تدبُّرٌ وعمل**: مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي، الطبعة الرابعة (١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)، دار القلم، دمشق.
- **قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله** : لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الطبعة الخامسة (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م)، دار القلم، دمشق.

- **كتاب العين**: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**: لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م)، دار التفسير، جدة، مجموعة محققين.
- **المختصر في التفسير**: إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة الثانية (١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م)، الرياض.
- **مختصر منهاج القاصدين**: للإمام نجم الدين أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، شرح وتحقيق: رضوان جامع رضوان، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة.
- **المستدرك على الصحيحين**: للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة، بيروت، طبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة، بإشراف: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي.
- **معارج التفكر ودقائق التدبر**: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، دار القلم، دمشق.
- **معارج الصعود إلى تفسير سورة هود**: لفضيلة الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ)، كتب عن فضيلة المفسر هذا التفسير: تلميذه عبد الله بن أحمد قادري، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، الخبر.
- **معجم مقاييس اللغة**: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب، الآنسة فاطمة محمد أصلان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، دار إحياء التراث، بيروت.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **المقاصد القرآنية**: أعده د. محمد بن عبد الرحمن الربيعة، وآخرون، مقررات الدبلوم العالي لإعداد معلمي التدبر (١٤٣٨ - ١٤٣٩هـ).
- **مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا**: رئيس فريق إعداد المنهج: أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي، أستاذ التفسير وعلوم القرآن في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م)، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة.
- **هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن**: ليوسف بن حسن بن عبد الهادي الشهير بابن المبرد (٩٠٩هـ)، تحقيق ودراسة: محمد أنور صاحب بن محمد عمر، رسالة دكتوراه في قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية، إشراف: الأستاذ الدكتور حكمت بشير ياسين، العام الدراسي (١٤١٨ - ١٤١٩هـ)، وهي غير مطبوعة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	١٨٥
المقدمة	١٨٦
المبحث الأول: في الكلام عن التدبر وقصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين	١٩٠
المطلب الأول: تعريف التدبر	١٩٠
المطلب الثاني: العلاقة بين التدبر والتفسير، والتدبر والاستنباط	١٩٢
المطلب الثالث: وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته وأهمية تدبر قصص القرآن	١٩٣
المطلب الرابع: الأمور المعينة على التدبُّر	١٩٩
المطلب الخامس: ثمرات التدبر	٢٠١
المطلب السادس: قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين	٢٠٢
المبحث الثاني: الوقفات التدبرية من قصة شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين	٢٠٦
الخاتمة	٢٢٩
المراجع والمصادر	٢٣١
فهرس الموضوعات	٢٣٦